الفصل الثاني
في أسس الوسطيَّة

مما سبق اتضح لنا أن الوسطيَّة لا بد لها من توافر أمرين وهما: الخيرية والبينية، وإذا أردنا أن نعرِّف الوسطيَّة على الوجه الدقيق، هناك أسس لا بد من بيانها، ليحدد معنى الوسطيَّة.

وهذه الأسس هي:

١ ـ الغلو أو الإفراط.

٢ ـ الجفاء أو التفريط.

٣ ـ الصراط المستقيم.

فالصراط المستقيم، وهو وسط بين الغلو والجفاء، أو الإفراط والتفريط، كما يمثل الخيرية ويحقق معناها وبذلك يتحقق في الصراط المستقيم أمران من لوازم الوسطيَّة، وفي هذا المبحث سأبدأ في بيان هذه الأسس مبتدئاً بالغلو والإفراط، ثم الجفاء والتفريط، ثم أوضح معنى وحقيقة الصراط المستقيم، وبضدها تتبين الأشياء، وسأركز على تحديد معنى هذه الأسس من خلال القرآن الكريم والسنة المبينة لذلك، ثم كلام المفسرين وغيرهم من العلماء، ومن الله أستمد السداد والإعانة والتوفيق.

المبحث الأول
الغلو والإفراط

أولاً: الغلو: أما الغلو فقد عرفه أهل اللغة بأنه مجاوزة الحد، فقال ابن فارس: غلو: الغين واللام والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال:

obeikandl.com

غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه، وغلا الرجل في الأمر غلواً، إذا جاوز حده، وغلا بسهمه غلواً إذا رمى به سهماً أقصى غايته[١].

وقال الجوهري: وغلا في الأمر يغلو غلواً، أي جاوز فيه الحد[٢] وقال صاحب لسان العرب: وغلا في الدين والأمر، والأمر يغلو: جاوز حده، وفي التنزيل: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (النساء: ١٧١)[٣].

وقال بعضهم: غلوت في الأمر غلواً وغلانية وغلانياً إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه وفي الحديث: «**إياكم والغلو في الدين...**»[٤] أي التشدد فيه ومجاوزة الحد، كالحديث الآخر: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**».

وغلا السهم نفسه: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى، وكله من الارتفاع والتجاوز. ويقال للشيء إذا ارتفع: قد غلا، وغلا النبت: ارتفع وعظم،[٥] هذا معنى الغلو في اللغة: وقد جاءت آيتان في القرآن الكريم فيهما النهي عن الغلو بلفظه الصريح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١).

قال الإمام الطبري رحمه الله:

(لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده، يقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلوّاً)[٦].

وقال ابن الجوزي رحمه الله في تفسير هذه الآية: والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعر، وقال: الغلو: مجاوزة القدر في الظلم.

وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله، وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة. وعلى قول الحسن: غلو اليهود فيه قولهم إنه لغير رشدة،

---

(١) مقاييس اللغة، كتاب الغين، باب الغين واللام (٤/ ٣٨٧).
(٢) انظر: الصحاح مادة (غلا) (٦/ ٢٤٤٨).
(٣) لسان العرب، فصل الغين، باب غلا (١٥/ ١٣٢).
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي (٢/ ١٠٠٨، رقم ٢٠٢٩).
(٥) لسان العرب، فصل الغين، باب غلا (١٥/ ١٣١).
(٦) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٣).

وقال بعض العلماء لا تغلو في دينكم بالزيادة في التشدد فيه[١].

وقال ابن كثير: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاها الله إياه، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقّاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)[٢].

أما الآية الثانية فجاءت في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ (المائدة: ٧٧).

قال الطبري رحمه الله: (لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)[٣].

قال ابن تيمية[٤] رحمه الله: والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن[٥].

ومن غلو النصارى ما ذكره الله في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ (الحديد: ٢٧).

قال ابن كثير رحمه الله: في تفسير آية المائدة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٦٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٩).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣١٦).
(٤) هو شيخ الإسلام وحافظ الدين المجتهد في الأحكام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي، ولد بحران يوم الاثنين (١٠/ ٣/ ٦٦١هـ)، وتوفي رحمه الله ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة ٧٢٨هـ. انظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (١٤).
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩).

دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ (المائدة: ٧٧) أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله[١].

وقد وردت بعض الأحاديث التي تنهى عن الغلو، وذكر بعضها يساعد على فهم معناه وحده:

١ ـ عن ابن عباس ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «**هلمَّ القِطْ لي الحصى**»، فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: «**نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[٢].

قال ابن تيمية ﷺ: وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بما يقتضي مجانبة هديهم، أي هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك[٣].

٢ ـ عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثاً[٤].

قال النووي[٥]: هلك المتنطعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي (٢/ ١٠٠٨ رقم ٣٠٢٩) وصححه الشيخ الألباني ﷺ في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٣).

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (٢٧٥).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٤/ ٢٠٥٥ رقم ٢٦٧٠).

(٥) هو الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحوراني الشافعي، ولد ﷺ في سنة ٦٣١هـ بنوى، عاش حياته مجدّاً في طلب العلم وتعليمه، وتصنيف الكتب والمؤلفات الجليلة النافعة، وكان ﷺ مثالاً في الصلاح والورع، وله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مواقف محمودة، توفي عام ٦٧٦هـ، انظر ترجمته في طبقات الشافعية لابن هداية الله (٨٩).

(٦) مسلم مع شرح النووي، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن (١٦/ ٢٢٠).

٣ ـ عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول:

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار» ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧)[١].

٤ ـ وعن أبي هريرة[٢] ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدُّلجة»**[٣].

قال ابن حجر ﷺ: والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب[٤].

قال ابن رجب[٥] ﷺ: والتسديد العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه[٦].

٥ ـ وروى الإمام أحمد[٧] ﷺ في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: **«اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلو فيه»**[٨].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، في الحسد (٤/ ٢٧٧ رقم ٤٩٠٤) ضعفه الشيخ الألباني في ضعيفه رقم (٦٢٣٢).

(٢) هو عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي أبو هريرة ﷺ، صاحب رسول الله ﷺ ونقيب أهل الصفة، حمل عن رسول الله ﷺ علاً كثيراً حدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، توفي ﷺ سنة ٥٩هـ، وقيل غير ذلك، انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٣٦٢)، والحلية (١/ ٣٧٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١/ ١٨ رقم ٣٠).

(٤) البخاري مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (١/ ١١٦).

(٥) هو زين الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي، من علماء القرن الثامن الهجري، له مؤلفات من أشهرها لطائف المعارف، وجامع العلوم والحكم، ولد عام ٧٣٦هـ ببغداد، ونشأ وتوفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ شذرات الذهب، (٦/ ٣٣٩) والأعلام (٣/ ٢٩٥).

(٦) انظر: المحجة في سير الدلجة لابن رجب (٥١).

(٧) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ولد في بغداد سنة ١٦٢هـ، وبها نشأ وترعرع وهو إمام أهل السنة في عصره، له موقف مشهود ثبت أمام المأمون من محنة خلق القرآن، ورفع الله به السنة توفي (٢٤١هـ).

(٨) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٨، ٤٤٤) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٦٨).

٦ ـ وروي عنه ﷺ أنه قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالبين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[(١)].

والأحاديث السابقة ترشدنا إلى أن الغلو خروج عن المنهج وتعدي للحد، وعمل ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ والأحاديث التي تنهى عن الغلو كثيرة وليس هدفي في هذا البحث حصرها، وإنما اكتفيت ببعض الأحاديث التي لها دلالة على ما نحن بصدده، وهو تحديد معنى الغلو ومفهومه وحكمه، ومن ثم علاقته بالوسطيَّة، ولعلماء المسلمين تعريفات كثيرة لمعنى الغلو، واخترت منها في بحثي هذا تعريفين:

أولاً: تعريف ابن تيمية رحمه الله: الغلو مجاوزة الحد: مجاوزة بأن يزاد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك[(٢)].

ثانياً: تعريف ابن حجر رحمه الله إذ يقول: الغلو: المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد[(٣)].

وضابط الغلو هو تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى عنه[(٤)] في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ (طه: ٨١) ومما سبق من التعريف اللغوي وما ورد فيه من آيات وأحاديث وكذلك من تعريف العلماء يتضح لنا أن الغلو هو: مجاوزة الحد في الأمر المشروع، وذلك بالزيادة فيه أو المبالغة إلى الحد الذي يخرجه عن الوصف الذي أراده وقصده الشارع العليم الخبير الحكيم.

وقد أفاد وأجاد الشيخ عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق في إيضاح حقيقة الغلو وكشف حدوده ومعالمه في رسالته العلمية: الغلو في الدين.

وقسّم الغلو إلى أقسام:

أولاً: أن منشأ الغلو بحسب متعلقه ينقسم إلى ما يلي[(٥)]:

---

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على أحاديث المشكاة، رقم (٢٤٨) إن الحديث مرسل.
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩).
(٣) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٦).
(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد (٢٥٦).
(٥) الغلو في الدين (٨٣).

أ ـ إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله ﷻ عبادة وترهباً، ومقياس ذلك الطاقة الذاتية حيث إن تجاوز الطاقة في أمر مشروع يعتبر غلوّاً. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

ما رواه أنس بن مالك[١] ﷺ قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: «**ما هذا الحبل؟**» فقالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «**حلوه ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد**»[٢].

قال ابن حجر ﷺ في شرحه لهذا الحديث: وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها[٣].

ب ـ تحريم الطيبات التي أباحها الله على وجه التعبد، أو ترك الضرورات أو بعضها ومن أدلة ذلك قصة النفر الثلاثة، حيث روى أنس بن مالك ﷺ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ فقد غفر الله له تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٤].

وكذلك لو اضطر مسلم إلى شيء محرم، كأكل حيوان محرم أو ميتة، وترك ذلك يؤدي به إلى الهلكة، فإن ذلك من التشدد، وبيان ذلك: أن الله هو الذي حرم هذا الشيء في حالة اليسر، وهو سبحانه الذي أباح أكله في حالة الاضطرار، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

---

(١) هو أنس بن مالك الأنصاري، ثالث الرواة المكثرين من الصحابة، فقد روى (٢٢٨٦) حديثاً وهو خادم رسول الله ﷺ، وأمه أم سليم الأنصارية، قال فيه أبو هريرة ﷺ: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم، وقال فيه ابن سيرين: أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر. توفي عام (٩٣هـ). انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ١٠)، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٣٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يُكره من التشدد في العبادة (٢/ ٦١ رقم ١١٥٠).

(٣) فتح الباري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشدد في العبادة (٣/ ٣٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح (٢/ ١٠٢٠ رقم ١٤٠٢).

﴿وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة: ١٧٣).

٣ ـ أن يكون الغلو متعلقاً بالحكم على الآخرين، حيث يقف من بعض الناس موقف المادح الغالي، ويقف من آخرين موقف الذام الجافي، ويصفهم بما لا يلزمهم شرعاً كالفسق أو المروق من الدين ونحو ذلك، وفي كلا الحالين يترتب على ذلك أعمال هي من الغلو، كالحب والبغض، والولاء والهجر، وغير ذلك.

ثانياً: أن الغلو في حقيقته حركة في اتجاه الأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، ولكنها حركة تتجاوز في مداها الحدود التي حدها الشارع، فهو مبالغة في الالتزام بالدين، وليس مروقاً عنه في الحقيقة، بل هو نابع من القصد في الالتزام به[١].

ثالثاً: أن الغلو ليس هو الفعل فقط؛ بل قد يكون تركاً[٢] فترك الحلال كالنوم والأكل ونحوه من أنواع الغلو، إذا كان هذا الترك على سبيل العبادة والتقرب إلى الله كما يفعل بعض الصوفية والنباتيين[٣].

رابعاً: الغلو على نوعين: اعتقادي وعملي.

الاعتقادي على قسمين:

اعتقادي كلي، واعتقادي فقط.

والمراد بالغلو الكلي الاعتقادي ما كان متعلقاً بكليات الشريعة وأمهات مسائلها.

أما الاعتقادي فقط فهو ما كان متعلقاً بباب العقائد دون غيرها كالغلو في الأئمة وادعاء العصمة لهم، أو الغلو في البراءة من المجتمع العاصي أو تكفير أفراده واعتزالهم.

ويدخل في الغلو الكلي الاعتقادي الغلو في فروع كثيرة إذ أن المعارضة الحاصلة به للشرع مماثلة لتلك المعارضة الحاصلة بالغلو في أمر كلي[٤].

---

(١) انظر: الغلو في الدين (٨٤).
(٢) مع الترك قد يكون فعلاً.
(٣) المصدر السابق (٨٤).
(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩) والغلو في الدين (٧٠).

أما الغلو الجزئي العملي، فهو ما كان غلواً في جزئية من جزئيات الشريعة ومتعلقاً بباب الأعمال دون الاعتقاد، فهو محصور في جانب الفعل سواء أكان قولاً باللسان أم عملاً بالجوارح[١].

والغلو الكلي الاعتقادي أشد خطراً، وأعظم ضرراً من الغلو العملي إذ أن الغلو الكلي الاعتقادي هو المؤدي إلى الشقاق والانشقاق، وهو المظهر للفرق والجماعات الخارجة عن الصراط المستقيم، وذلك كغلو الخوارج[٢] والشيعة[٣].

خامساً: أنه ليس من الغلو طلب الأكمل في كمية العبادة، بل يدخل في تحديد الأكمل أمور عدة تتعلق بالعمل، وبمن قام بالعمل، وكذلك من له صلة بهذا العمل.

فالصدقة ـ مثلاً ـ يراعى فيها: المتصدق والمتصدق عليه، والمال المتصدق به، ولا يسمى كمالاً كليّاً بالنظر للكمال الجزئي. وذكر ابن حجر ﷺ ما يؤيد هذا المعنى ونسبه إلى ابن المنير فقال: وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل[٤].

سادساً: أن الحكم على العمل بأنه غلو، أو أن هذا المرء من الغلاة، باب خطير لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يدركون حدود هذا العمل، وتبحروا في علوم العقائد وفروعها، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فقد يكون الأمر مشروعاً ويوصف

---

(١) انظر: الغلو في الدين (٧٧).

(٢) سموا بذلك لخروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، يجمعهم إكفار علي، وعثمان، والحكمين وأصحاب الجمل، والخروج على السلطان الجائر، وتكفير صاحب الكبيرة، وتخليده في النار، خلافاً للنجدات منهم (نجدة بن عامر) وتفرقوا إلى أكثر من عشرين فرقة: انظر مقامات الإسلاميين للأشعري (١/ ٨٦) والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤)، واعتقادات فرق المسلمين للفخر الرازي (٤٦) وما بعدها.

(٣) سموا بذلك لمشايعتهم علي بن أبي طالب ﷺ وقولهم بإمامته، نصاً ووصية: إما جليّاً، وإما خفيّاً، وأن الإمامة لا تخرج من ولده إلا بظلم من غيره أو تقية منه، والإمامة عندهم من أصول الدين وقالوا بوجوب العصمة للأنبياء عن الكبائر والصغائر، والتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً، إلا في حالة التقية، وقد يطلق اسم الرافضة على الشيعة وهذا كثير، وقد يُراد بالرافضة الفرقة التي في مقابل الزيدية وذلك لرفضهم زيد بن علي في قتاله هشام ابن عبد الملك. انظر: الملل والنحل (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٤) انظر: فتح الباري (١/ ٩٤)، والغلو في الدين (٨٥).

صاحبه بالغلو، وها نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله، المتمسكين بالكتاب والسنة يوصفون بالغلو والتطرف والتزمّت ونحوها، ولذلك فإن المعيار في الحكم على الأعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة وليست الأهواء والتقاليد والأعراف والعقول، وما تعارف عليه الناس، وقد ضل في هذا الباب أمم وأفراد وجماعات.

وبعد أن اتضح لنا معنى (الغلو) لغة وشرعاً، وما يتعلق به من معان وأقسام، أوضح معنى (الإفراط) بإيجاز، حيث ستتضح صلته بالغلو.

ثانياً: الإفراط:

لغة هو: التقدم ومجاوزة الحد.

قال ابن فارس: يقال: أفرط: إذا تجاوز الحد في الأمر، ويقولون: إياك والفرط، أي لا تجاوز القدر، وهذا هو القياس، لأنه إذا جاوز القدر فقد أزال الشيء عن وجهته[١].

وقال الجوهري: وأفرط في الأمر: أي جاوز فيه الحد[٢].

والفُرطة - بالضم - اسم للخروج والتقدم، ومنه قول أم سلمة[٣] لعائشة[٤] ﵄: «إن رسول الله ﷺ نهاك عن الفرطة في البلاد»، وفي رواية نهاك عن الفرطة في الدين، يعني السبق والتقدم ومجاوزة الحد.

والإفراط: الإعجال والتقدم، وأفرط في الأمر: أسرف وتقدم وكل شيء جاوز قدره فهو مفرط[٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (طه: ٤٥).

---

(١) مقاييس اللغة، كتاب الفاء والراء (٤/ ٤٩٠).

(٢) انظر: الصحاح مادة (فرط) (٣/ ١١٤٨).

(٣) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، المخزومية من أمهات المؤمنين دخل بها رسول الله ﷺ في سنة أربع من الهجرة بعد وفاة أبي سلمة ﵁ وكانت آخر أمهات المؤمنين، عاشت نحواً من تسعين سنة، وتوفيت سنة (٦١هـ). انظر ترجمتها في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).

(٤) هي عائشة بنت الإمام الصديق الأكبر أبي بكر ﵁ التيمية القرشية أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ أفقه نساء الأمة على الإطلاق، توفيت عام (٥٧هـ) وقيل: (٥٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

(٥) لسان العرب: فصل الفاء، باب فرط (٧/ ٣٦٩).

قال الطبري رحمه الله: وأما الإفراط فهو الإسراف والإشطاط والتعدي، يقال منه: أفرطت في قولك، إذا أسرف فيه وتعدى، وأما التفريط فهو التواني، يقال منه فرطت في هذا الأمر حتى فات، إذا توانى فيه[١].

ونخلص مما سبق أن معنى الإفراط: تجاوز الحد، والتقدم عن القدر المطلوب وهو عكس التفريط سيأتي:

وقد تبين مما سبق من تعريفي الغلو والإفراط أن كلاً منهما يصدق عليه تجاوز الحد، وقد فسر الغلو بالإفراط كما سبق وإن كل واحد منهما يحمل معنى أبلغ من الثاني في بعض ما يستعمل فيه، فالذي يشدد على نفسه بتحريم بعض الطيبات، أو بحرمان نفسه منها وصف الغلو ألصق به من الإفراط، والذي يعاقب من اعتدى عليه عقوبة يتعد بها حدود مثل تلك العقوبة وهكذا.

والذي يهمنا في هذا المبحث أن كلاً من الغلو والإفراط خروج عن الوسطيَّة، فكل أمر يستحق وصف الغلو أو الإفراط فليس من الوسطيَّة في شيء.

المبحث الثاني
التفريط والجفاء

أولاً التفريط: وبعد أن اتضح لنا معنى الغلو والإفراط، وما يدل عليه كل منهما، نقف الآن مع ما يقابلهما، وهو التفريط والجفاء. والتفريط في اللغة هو التضييع كما في لسان العرب.

وفي حديث علي رضي الله عنه: (لا يرى الجاهل إلا مفرِّطاً أو مفْرِطاً)، وهو بالتخفيف المسرف في العمل، وبالتشديد المقصر فيه، وفرط في الأمر يفرط فرطاً أي: قصر فيه وضيعه حتى فات، وكذلك التفريط[٢].

ومنه قول الرسول ﷺ: **«أما إنه ليس في النوم تفريط»**[٣] وإذن فالتفريط هو التقصير والتضييع والترك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٧٠).
(٢) لسان العرب، فصل الفاء، باب فرط (٧/ ٣٦٩).
(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة (١/ ٤٧٣، رقم ٦٨١).

قال ابن فارس رحمه الله: وكذلك التفريط، وهو التقصير، لأنه إذا قصر فيه فقد قعد عن رتبته التي هي له[١].

وقال الجوهري رحمه الله: فرط في الأمر فرطاً، أي قصر فيه وضيعه حتى فات، وكذلك التفريط[٢].

وقد وردت مادة (فرط) في القرآن في عدة مواضع.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (الأنعام: ٣١).

قال الطبري رحمه الله: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها[٣].

وقال القرطبي رحمه الله: وفرطنا معناه ضيعنا، وأصله التقدم، فقولهم: فرطنا، أي قدمنا العجز.

وقيل: (فرطنا) أي جعلنا غير الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا[٤].

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

قال الطبري رحمه الله: ما ضيعنا إثبات شيء منه[٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب[٦].

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)[٧].

قال الطبري رحمه الله: قد بينا أن معنى التفريط: التضييع فيما مضى قبل، وكذلك أوّله

---

(١) معجم مقاييس اللغة، كتاب الفاء، باب الفاء والراء (٤/ ٤٩٠).
(٢) انظر: الصحاح، مادة فرط (٣/ ١١٤٨).
(٣) انظر: الطبري في تفسيره (٧/ ١٧٨).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤١٣).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٨).
(٦) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٨).
(٧) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).

المتأولون في هذا الموضع. قال ابن عباس ﷺ ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: لا يضيعون)[١].

وفي سورة يوسف: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٠).

قال الطبري ﷺ: ومن قبل فعلتكم هذه تفريطكم في يوسف، يقول: أو لم تعلموا من قبل هذا تفريطكم في يوسف[٢].

قال القاسمي ﷺ: ﴿فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه[٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (النحل: ٦٢).

قال سعيد بن جبير ﷺ: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ منسيون مضيعون، وقال قتادة ﷺ: (مضاعون).

وقال آخرون: إنهم معجلون إلى النار مقدمون إليها، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب: أفرطنا فلاناً في طلب الماء إذا قدموه لإصلاح الدلاء. وقيل غير ذلك، ورجح الطبري ﷺ أن معنى (مفرطون) مخلفون متروكون في النار، منسيون فيها[٤].

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨) روى عن مجاهد ﷺ: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ضائعاً وروي عنه: ضياعاً.

قال الطبري ﷺ: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ضياعاً وهلاكاً، ومن قولهم: أفرط فلان في هذا الأمر إفراطاً، إذا أسرف فيه وتجاوز قدره، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ معناه: وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا الرياء، والكبر، واحتقار أهل الإيمان، سرفاً قد تجاوز حده فضيع بذلك الحق وهلك[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٥).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٥).
(٣) انظر: تفسير القاسمي (٩/ ٣٥٧٩).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٧٧).
(٥) انظر: المرجع السابق (١٥/ ٢٣٦).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: في الآية أربعة أقوال **أحدها**: أنه أفرط في قوله.

والثاني: ضياعاً، **والثالث**: ندماً، **والرابع**: كان أمره التفريط، والتفريط: تقديم العجز[١].

وفي سورة الزمر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الزمر: ٥٦).

قال الطبري رحمه الله: يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله[٢].

وقال القاسمي رحمه الله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي قصرت ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في جانب أمره ونهيه[٣].

هذا تفسير الآيات التي ورد فيها ما يدل على التفريط، ومن خلال أقوال المفسرين تبين أنها تدل على الترك والتهاون والتقصير والتضييع مع اختلاف بسيط بين مدلول هذه المعاني وكلها في مقابل الإفراط والغلو.

ثانياً: الجفاء:

فقال ابن فارس رحمه الله: الجيم والفاء والحرف المعتل يدل على أصل واحد: نبو الشيء عن الشيء، من ذلك: جفوت الرجل، جفوة، وهو ظاهر الجفوة، أي الجفاء، وجفاء السرج عن ظهر الفرس، وأجفيته أنا. وكذلك كل شيء إذا لم يلزم شيئاً، يقال: جفا عنه يجفو.

والجفاء: خلاف البر، والجفاء: ما نفاه السيل، ومنه اشتقاق الجفاء[٤].

وقال ابن منظور[٥]: جفا الشيء يجفو جفاء وتجافى: لم يلزم مكانه، كالسرج يجفو عن الظهر وكالجنب يجفو عن الفراش، وفي التنزيل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ

---

(١) انظر: زاد المسير (٥/١٣٣).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/١٩).
(٣) تفسير القاسمي (١٤/٥١٤٦).
(٤) انظر: مقاييس اللغة، كتاب الجيم، باب الجيم والفاء، مادة جفو (١/ ٤٦٥).
(٥) انظر: لسان العرب، فصل الجيم، باب جفا (١/ ٤٩).

﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة: ١٦) وفي الحديث: «**اقرؤوا القرآن ولا تجافوا عنه**»[١] أي تعاهدوه ولا تبتعدوا عن تلاوته.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**»[٢].

وفي الحديث أيضاً: «**من بدا جفا**»[٣]. بدا: بالدال المهلة، خرج إلى البادية، والجفاء غلظ الطبع. وفي صفته ﷺ ليس بالجافي المهين أي: ليس بالغليظ الخلقة ولا الطبع[٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ (الرعد: ١٧).

قال الطبري ﷺ: زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ تنشفه الأرض، وقال: يقال: جفا الوادي وأجفى: في معنى نشف[٥].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة: ١٦) قال الطبري ﷺ: تتنحى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله الذين وصفت صفتهم، وترفع عن مضاجعهم التي يضطجعون لمنامهم، ولا ينامون.

تتجافى: تتفاعل من الجفاء، والجفاء النبو. وإنما وصفهم ـ تعالى ذكره ـ بالتجافي في جنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنوم شغلاً بالصلاة.

ثم قال: إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلاً.. إلخ[٦].

وبذلك يتضح أن الجفاء هو النبو والترك، والبعد، وهو غالباً ما يحدث خلاف الأصل والعادة، وأكثر ما تستعمل كلمة جفاء لما هو محرم منهي عنه كالجفاء بما يقابله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٨، ٤٤٤) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٦٨).
(٢) أخرجه الترمذي كتاب الصلة والبر، باب ما جاء في الحياء (٤/ ٣٢٠ رقم ٢٠٠٩).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧١، ٤٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٧٢).
(٤) انظر: لسان العرب، فصل الجيم، باب جفا (١/ ٤٩).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٣٧).
(٦) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٩٩ ـ ١٠٢).

الصلة والبر، والجفاء الذي هو من الشدة والغلظة وهذه أمثلة يتضح فيها معنى التفريط والجفاء:

١ ـ عقوق الوالدين: جفاء.

٢ ـ تأخير عمل اليوم إلى الغد ـ دون سبب ـ: تفريط.

٣ ـ إهمال تربية الأولاد: تفريط.

٤ ـ ترك الأخذ بالأسباب: تفريط.

٥ ـ رؤية المنكرات وعدم إنكارها مع القدرة على ذلك: تفريط.

٦ ـ الغلظة في المعاملة: جفاء.

٧ ـ تأخير الصلاة عن وقتها: تفريط.

٨ ـ السلبية مع واقع المسلمين وشؤونهم وشجونهم: جفاء وتفريط.

٩ ـ عدم القيام بحقوق العلماء وضعف الصلة بهم: جفاء وتفريط.

١٠ ـ قطع الأرحام وعدم صلتهم: جفاء وتفريط.

وبهذا يتبين معنى التفريط والجفاء، وأن بينهما عموماً وخصوصاً وهما يقابلان معنى الغلو والإفراط.

وعند التأمل في استعمال العرب لهما يلاحظ:

أن الجفاء يستعمل ـ غالباً ـ فيما فيه قصد الأمر من الترك والبعد وسوء الخلق. أما التفريط فمنشؤه ـ غالباً ـ التساهل والتهاون.

أن كل أمر اتصف بالتفريط أو بالجفاء فإنه يخالف الوسطيَّة، وبمقدار اتصافه بأي من هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطيَّة وتجافيه عنها.

المبحث الثالث
الصراط المستقيم

إننا بدون فهم معنى (الصراط المستقيم)، وتحديد مدلوله، لا نستطيع فهم الوسطيَّة على معناها الصحيح. وقد ورد لفظ الصراط المستقيم، في القرآن الكريم

عشرات المرات، وجاء أيضاً بلفظ ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ٢) و ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣) ونحو ذلك.

ففي سورة الفاتحة نجد قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة: ٥) ثم يفسّره بأنه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ (الفاتحة: ٧).

وفي البقرة جاء قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢) وجاء بعد هذه الآية مباشرة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وسيأتي بيان العلاقة بين هاتين الآيتين، وعيسى عليه السلام، في سورة آل عمران يقول لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ (آل عمران: ٥١).

ونجد أن سورة الأنعام من أكثر السور التي ورد فيها الحديث عن الصراط المستقيم ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٣٩) ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٨٧) ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٢٦) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام: ١٥٣) ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٦١).

وفي سورة إبراهيم سماه صراط العزيز الحميد: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١) وفي سورة طه، وصفه بالسوي فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ١٣٥).

وفي سورة الحج أضافه للحميد فقال: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ (الحج: ٢٤) وفي سورة المؤمنون عرفه دون وصف أو إضافة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ (المؤمنون: ٧٤) وفي مريم يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣).

وقول الله في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

هذه بعض الآيات التي وردت في ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فما معناه؟

قال الطبري رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة: ٥)

أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب، ومن قول الشاعر:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم[١]

وقال ابن عباس: قال جبريل لمحمد ﷺ: اهدنا الصراط المستقيم: يقول ألهمنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج له[٢].

قال الطبري رحمه الله:

وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صواب لا خطأ فيه[٣].

وقال: وكل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب، لإضلاله وجه الطريق[٤].

وقال ابن كثير رحمه الله:

واختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله ورسوله[٥].

وإليك أقوال المفسرين في الصراط المستقيم:

فقد روى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ذكر القرآن فقال: **«هو الصراط المستقيم»**[٦].

وقال علي: الصراط المستقيم: كتاب الله تعالى.

وبمثل ذلك فسَّره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: اهدنا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٧٣).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٧٤).
(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٧٥).
(٤) انظر: المصدر السابق (١/ ٨٤).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧).
(٦) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، (٥/ ١٥٨ رقم ٢٩٠٦)، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال، وأخرجه أيضاً الدارمي (٢/ ٥٢٧ رقم ٣٣٣٢) وأخرجه أحمد مختصراً (١/ ٩١). قال الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن (١١ ـ ١٢): وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح.

الصراط المستقيم الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض. وقال ابن عباس: ذلك الإسلام. وقال ابن عباس ﷺ: هو الطريق[١].

وقال القاسمي ﷺ: أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في مبحث له مهم ننشره عنه هنا لما فيه من الفوائد الجلية، قال ﷺ: ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين: أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض، بل يمكن أن يكون كل منهما حقّاً، وإنما هو اختلاف تنوع، أو اختلاف في الصفات أو العبادات وعامة الاختلاف الثابت بين مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب. فالله ﷻ إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥) فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة يدل بها على بعض صفاته، وكل ذلك حق، بمنزلة ما يسمي الله ورسوله، وكتابته بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته.

فيقول بعضهم: الصراط المستقيم: كتاب الله أو اتباع كتاب الله.

ويقول الآخر: الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام.

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو السنة والجماعة.

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: طريق العبودية، أو طريق الخوف والرضا والحب، وامتثال المأمور واجتناب المحظور، أو متابعة الكتاب والسنة، أو العمل بطاعة الله، ونحو هذه العبارات والأسماء، ومعلوم أن المسمى هو واحد، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه[٢].

ثم قال في موضع آخر: فإن الصراط المستقيم أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا تفعل ما نهيت عنه، وهذا يحتاج في وقت إلى أن تعلم ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهى عنه، وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة لترك المحظور، والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن والإسلام، وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا وبغيره[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧).
(٢) انظر: تفسير القاسمي (١/ ٢٠).
(٣) انظر: المرجع السابق (١/ ٢٢).

قال القاسمي رحمه الله: الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة، فالطريق الواضح للحس، كالحق للعقل، في أنه إذا سير بهما أبلغنا السالك النهاية الحسنى[١].

وقال ابن عاشور رحمه الله: والصراط في هذه الآية (آية الفاتحة) مستعار ـ لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضى الله، لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه. والمستقيم: اسم فاعل من استقام، مطاوع قوَّمته فاستقام، والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيماً، وهو الجادة لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضل فيه سالكه، ولا يتردد ولا يتحير. والمستقيم هنا مستعار للحق البين الذي لا تخالطه شبهة باطل، فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات، ثم قال: والأظهر عندي أن المراد بالصراط المستقيم: المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل[٢].

هذه بعض أقوال المفسرين في معنى الصراط المستقيم، كما ورد في سورة الفاتحة وحيث وردت آيات كثيرة ذكر فيها الصراط المستقيم سبق ذكر بعضها فإن معناها من هذا المعنى الذي سبق تقريره، ولإيضاح ذلك أذكر تفسير بعض هذه الآيات باختصار:

قال تعالى: ﴿وَأَجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٨٧).

قال مجاهد رحمه الله: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٢٦).

قال الطبري رحمه الله: هو صراط ربك، يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعني قويماً لا اعوجاج به عن الحق[٤].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (١/ ١٩).
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ١/ ١٩٠).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٦٢).
(٤) انظر: المرجع السابق (٨/ ٣٢).

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٦١).

قال الطبري رحمه الله: يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، وهو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له[١].

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ (الأعراف: ١٦). قال الطبري رحمه الله: يقول لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم، يعني طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣) قال الطبري رحمه الله: يقول أبصرك هدي الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (المؤمنون: ٧٤) قال الطبري رحمه الله: يقول عن محجة الطريق، وقصد السبيل، وذلك دين الله الذي ارتضاه لعباده العادلين[٤].

وبهذا يتضح أن معنى الصراط في جميع هذه الآيات معنى واحد، وإن اختلفت العبرة والسياق.

المبحث الرابع
الصلة بين الوسطيّة والصراط المستقيم

مما تقدم يتضح أن معنى الصراط المستقيم يدل على الوسطيَّة في مفهومها الشرعي الاصطلاحي الذي سبق تقريره، وبخاصة أن ما جعلته لازماً لمفهوم الوسطيَّة وإطلاقها قد تحقق في معنى الصراط المستقيم، فالخيرية والبينية ظاهرتان في هذا الأمر. فنجد في سورة الفاتحة لما قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ (الفاتحة:

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١١١).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٤).
(٣) انظر: المرجع السابق (١٦/ ٩٠).
(٤) انظر: المرجع السابق (١٨/ ٤٤).

٥) عرفه فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ (الفاتحة: ٦) ثم حدده فقال: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) فجعل الصراط المستقيم طريق الأخيار، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وهو بين طريقي المغضوب عليهم والضالين.

وكذلك في سورة البقرة قال تعالى: ﴿يَهدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢) فقال بعدها مباشرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلنَٰكُم أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وقد تحدث المفسرون عن الكاف في هذه الآية، وذكر غير واحد (الكاف) للربط بين جعلهم أمة وسطاً وهدايتهم للصراط المستقيم[(١)].

وهذه بعض الأحاديث التي تزيد الأمر وضوحاً:

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «كنا عند النبي ﷺ، فَخط خطّاً وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الأوسط، فقال: هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُستَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٢)].

وذكر القرطبي ﷺ في تفسيره: أن رجلاً قال لابن مسعود ﷺ: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أداه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جَوَادَ، وعن يساره جَوَاد، وثم رجال يبدعون مَن مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ عن الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُستَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣)[(٣)].

وبالتأمل فيما سبق يتضح لنا ما يلي:

١ ـ أن الصراط المستقيم: يمثل قمة الوسطيَّة وذروة سنامها وأعلى درجاتها، وآيتا الفاتحة والبقرة حجة قاطعة في ذلك.

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢/ ١/ ١٥)، والطبري (٢/ ٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع رسول الله ﷺ (١/ ٦ رقم ١١) وله شواهد، وحسَّنه الشيخ الألباني ﷺ في المشكاة رقم (١٦٦) ونقل عن الحاكم تصحيحه.

(٣) يختلف ذلك باختلاف الأحوال والقضايا، ولكل حالة ما يناسبها ضمن الضوابط الشرعية.

٢ ـ أن الوسطيَّة تعني الخيرية، سواء أكانت خير الخيرين أو خيراً بين شرين، أو خيراً بين أمرين متفاوتين، وقد سبق تفصيل ذلك.

٣ ـ أن المقياس لتحديد الخيرية هو الشرع، وليس هوى الناس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه، فإن مفهوم الوسطيَّة عند كثير من الناس تعني التنازل أو التساهل؛ بل والمداهنة أحياناً، حيث يختارون الأمر بين الخير والشر وهو إلى الشر أقرب في حقيقته ومآله، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٤ ـ أن هناك عوامل كثيرة، وأصولاً معتبرة[1] تجب مراعاتها عند ضبط مفهوم الوسطيَّة وتطبيقها على أمر من الأمور، حيث إن قصر النظر على أمر دون آخر يؤدي إلى خلاف ذلك ومجانبته.

* * *

(١) انظر: الوسطيَّة في ضوء القرآن (٧٩، ٨٠، ٨١).

obeikandl.com